المرأة في المشروع الإصلاحي للدكتور إبراهيم الجعفري

(...نريد للمرأة أن تكون صوتاً لا أن تبقى صدى لصوت الآخرين...)

(... استشرافي للمستقبل يكشف لي... أن المرأة العراقية ستحتل قمة من بين القمم تماماً كما احتل العراق مكانته في التاريخ، والحضارة، والفكر...)

(...يجب أن ندرك أننا في تقدم في مجال المرأة... وبلدان العالم تفخر عندما تجد في تاريخها مواقف رصّعتها بعض النساء... ونحن أمام حاضر وتاريخ حافل بمواقف نسوية ينحني الإنسان إجلالاً لها...)

(... كلما ارتقت المرأة على سلم المجد زادت التحديات.. هذه طبيعة ولا يمكن التفكيك بين مستوى الصعود ودرجة التحدي ... لذلك المراة اليوم لها الشرف أنها سبقت أخواتها في بقية الدول التي ليست بعيدة كثيراً عن جغرافية العراق، وحتى عن الدول الأخرى في العالم...)

مقتطفات من الخطاب الذي ألقاه الدكتور إبراهيم الجعفري في المؤتمر الاول الذي عقدته مؤسسة المرأة العراقية في بغداد بتأريخ 9 / 6 / 2007

تمهيد

قلة هم أولئك الذين كانوا ظاهرة، وكانوا بأنفسهم مشاريع تغيير.. وقلة هم أولئك الذين تنهد بهم الحياة، وهم موزعون على مفارق الأزمان كالمصابيح، وهم على قلتهم كالأعمدة تنفرج فيما بينها فسحات الهياكل، وترسو على كواهلها أثقال المداميك (التحديات)؛ لتومض من فرق مشارفها قبب المنائر، وإنهم في كل ذلك كالرواسي تتقبل هوج الأعاصير وزمجرة السُحُب لتعكسها من مصافيها على السفوح خيرات رقيقة، رفيقة، عذبة المدافق.

ومن بين هؤلاء القلة يبرز الدكتور إبراهيم الجعفري في هالة من وعي شامل، وفي ظل من معرفة جعلت منه موسوعة تجمع بين ثقافات إنسانية في سائر المجالات، وميدان عمل يستشرف منه الوجدان العراقي الجمعي في كدحه نحو التجديد والتغيير أن اللحظات التاريخية الراهنة يصنعها رجل توافرت له السانحة، واشتمل على ملكات نفسانية وروحانية، وتزاخرت فيه وفرة كريمة من المواهب والمزايا.

وعلى الرغم من مقولات التغيير والتجديد للعراق الجديد، وما إلى ذلك من الاستعارات اللفظية والمعنوية إلا أن الواقع العراقي وعلى مدى السنوات الخمس المنصرمة أثبت تزاحمها وعدم جدواها؛ بسبب تباين استراتيجيات العمل فضلاً عن آلياته، ويبقى المتطلعون نحوها وهم السواد الأعظم من العراقيين بانتظار من يصف العلاج الناجع، والحل الناجح..

ومن بين ما أفاض به سيادته، ودخل إلى معضله الميداني هو المرأة وحركيتها داخل المجتمع، فوصف الحال، ووضع الحل للمشكل الموضوعي، واستشرف المستقبل وفق مقدمات ينبغي الأخذ بها؛ لتأخذ الأمة باتجاه الإصلاح لواقع تردّى نتيجة سلوكيات وعادات بعيداً عن ثقافته الأصيلة الحقة.

فانبرى لتلك القضية برؤية شاملة وواضحة ومنصفة للمرأة، تلك القضية التي غالباً ما كانت تُعالَج انطلاقاً من تجارب ذاتية وأوضاع شخصية كانت تُعمَّم لتشمل النساء جميعاً، وهذا ما جعلها قاصرة ومحدودة، وتعبّر عن ردات فعل أكثر مما تعبّر عن رؤية موضوعية، وهذا هو سبب التخبّط الأساسي في موضوع المرأة، بسبب تداخل الأفكار بالانفعالات والذاتي بالموضوعي.

إن أهم ما جاء في خطابات الدكتور الجعفري أنه احترم إنسانية المرأة، وأوضح لها دورها، وحدّد لها ـ كقائد ـ مسؤوليتها في المشاركة في محاربة الظلم وإقامة العدل، ودعا إلى تحرير الطاقات النسائية التي حُرم منها المجتمع طويلاً على حد تعبيره، لتأخذ دورها في الحياة والمجتمع.

ونظرة الدكتور الجعفري للمرأة لم تكن قط متجزئة ولا أحادية الجانب، فهو كما طلب منها المشاركة في المجتمع، اعتبر أن دورها في التربية يتأسى بعمل الأنبياء. وفرادة رؤية الجعفري وتميّزها تكمنان في أنه أعطى روحاً جديدة للأدوار والوظائف المطلوبة من المرأة؛ لتنظر إلى نفسها وإلى موقعها بطريقة مختلفة ملؤها الثقة والأمل والإحساس بالمسؤولية.

المرأة موضوعة التاريخ

يشكّل موضوع المرأة أبرز تحدٍ مجتمعي، ويظل الحديث عنه بشرط المعرفية وسلامة الفكر مُهماً لتكوين وجهة نظر متماسكة حول المرأة وحاضرها ومستقبلها مع الاستفادة من تاريخها ودورها المؤثر في حركة المجتمع البشري وما يحدث فيه من تغيرات اجتماعية وثقافية وحقوقية وسايكولوجية أثبتت فيها أن لها اليد الطولى في مُجرياتها، وعلى الرغم من أن موضوع المرأة خضع لتجاذبات حادة في القرون الأخيرة، وخلص الغرب بعمومه إلى تصور خاص ونهائي لهذا المفهوم، واختار لنفسه طريقاً محدداً وشاملاً نسبياً على هذا الصعيد، إلا أنها مرت بمراحل وخلافات، ودخلتها إرهاصات ومخاضات.. لكنّ القرن العشرين كان بمثابة نوع من اكتمال الصورة غربياً لهذه الإشكالية التي بلغت الغاية في التعقيد؛ فنسج النظريات ودبج الأفكار ظناً أن المرأة قد تحقق نوعاً من السعادة ولكنه أغفل أو تغافل عن أن تلك السعادة المزعومة التي حظيت بها المرأة ليس عن طريق كونها امرأة أو عن طريق موقعها في الأسرة أو ميادين الحياة المختلفة؛ لأن الغرب لم يبنِ تصوراته وتفسيراته على نسق معرفي منظم وموحّد... لإيجاد حالة التوازن؛ فصار موضوعها تحدياً لا يُجدي التعامل معه تعاملاً نفعياً يُوظّف باستمرار لتزييف وعي المجتمع بحقيقة ذاته ومشكلاته ومتطلباته الراهنة والمستقبلية.

إن واقعنا الراهن يقتضي العمل بجدية لتحرير وعي المجتمع من خطورة هذه المفاهيم التهميشية من جهة، ومن جهة أخرى لرفع الوصاية عن المرأة باسم المساواة والتغيير وغير ذلك من الشعارات التي يتم استهلاكها إعلامياً وسياسياً لإخفاء حجم الإخفاق الذي تعيشه النظريات التي طرحت، وعززت فكرة هامشية المرأة ووضعتها في صف التبع أو الصدى الذي يردّد صوت الرجل.

بينما في المقابل نجد قدراً من التعاسة تملكه المرأة في الشرق وليس سببه انتماءها للإسلام أو لبيئة مسلمة بل لجملة من الظروف (اجتماعية - اقتصادية - ثقافية) أملتها عادات وتقاليد تقودها إلى حالة من الشقاء.

وعلى صعيد العالم الإسلامي كان القرن المنصرم نفسه مختلفاً جداً فقد شكّل قرن تفجّر للجدل حول هذه المقولة الشائكة، وهذا القرن كان مقطعاً زمنياً كافياً لإنتاج أو بلورة أوليات يُفترض تجاوزها لدفع الخلاف الحاد، ويتجلى في صعيدين:

الأول: إعادة صياغة وتشكيل للنظم المفاهيمية بلحاظ ثبات النتائج.

الآخر: تقديم تفسيرات يمكنها عقلنة معطيات النصوص.

لقد تحولت قضية المرأة إلى واجهة مجتمعية تختزل مجموع التصورات والمفاهيم والآيديولوجيات المتصارعة مجتمعياً وسياسياً وحضارياً، وتجاوزت الترف الفكري النخبوي لتلامس عمق الوعي الجماهيري، بل أصبحت أداة فعالة في تأطير الوعي الجماهيري وتفعيله باتجاه تكتلات ثقافية وسياسية ذات حركية سريعة ومكثفة.

هذه التمظهرات الصراعية فرضت طبيعة المقاربات التي عُولجت بها قضية المرأة، والتي بقيت أسيرة منطق دفاعي أو هجومي ساهم في تغييب الرؤية الشمولية.

وقد حدد الدكتور الجعفري النظرة في هذه الاتجاه، قائلاً:

(إن المناقشات الجارية حول المرأة أخذت شكل متناقضات مشدودة بقوة نحو هذا الطرف أو ذاك، لكنها قلّما استطاعت التفلّت من هذه الضغوط لتنظر إلى المسألة من حيث هي واقع مجتمعي قائم، وهو محصلة سلسلة من التراكمات التاريخية الموروثة والإملاءات الغيرية المكتسبة أو المفروضة معاً).

إن توجيه النقاش نحو هذه الوجهة يضعف القدرة على فهم واقع المرأة في المجتمع، وتقويمه تقويماً موضوعياً قادراً على فرز التراكمات التاريخية السلبية التي هي جزء من المطالب التغييرية فوقع النظر الغربي في منطق المحاكاة المدمّر للذات، أو السقوط في الدفاع عن صيغ مجتمعية هجينة.

وإذا كانت قضايا المرأة في جوهرها قضايا إنسانية - اجتماعية، أي لا تنفصل عن قضايا الرجل، فهي جزء جوهري أصيل في قضية الوجود الاجتماعي للإنسان.. وهذه القضية لا تُناقَش إطلاقاً إلا بوصفها قضية اجتماعية؛ حتى تتحدد وضعية المرأة في النسق الاجتماعي والثقافي والفكري وفقاً للشروط المحددة للوضع الإنساني عموماً.

وحين تُناقَش المشكلات الاجتماعية عامة - ومشكلة المرأة خاصة - من منظور الدين والأخلاق تتبدد جوانب المشكلة، وتخرج من خِضمّ الصراع الآيديولوجي النفعي، إلى أفق أرحب تتعاطى مع قضايا الإنسان بإنسانيته لا بغرائز يجب أن تشبع

مهما كان السبيل، والأهم من ذلك أن المناقشة خارج المنظور الديني والأخلاقي تُعَدُ إخفاءً متعمداً للبُعد الاجتماعي والإنساني من جهة، وتجاهُلاً قصدياً لعلاقة المرأة بالرجل في سياقها الحقيقي وإطارها الفعلي، ولن تؤدي إلى تغيير وضع المرأة ـ والوضع الإنساني عموماً ـ إلا إلى الوجهة السلبية التي يشهد بها التاريخ، وتؤكدها الأرقام والإحصاءات.

وللسيد الجعفري هذا الحديث:

(من يتتبّع مسيرة المرأة منذ أقدم العصور إلى اليوم يقدِّر كم كانت رحلة المرأة شاقة، فقد غصّت مجتمعات الغرب عموماً بظاهرة البطرياركية، والذكورية، واستفراغ المؤسسات من المرأة، والحكم عليها بأنها مخلوق ثانٍ هذه حقيقة الأمر...)

(وليت هذه المجتمعات اليوم استيقظت من سُباتها العميق الذي سَدَرت فيه عِبر أجيال طويلة توالت على مرّ التاريخ، بل مثلما كان فعلها التاريخي سيئاً كان رد فعلها الحاضر أسوأ؛ لأنها بشرّت بثقافة الأنوثة وثقافة الإثارة، فبدلاً عن أن تثير جمالاً جديداً، ليس جمال تناسق أرنبة الأنف، ومقاسات الخد، ولون العين، وتصفيفة الشعر، إنما ترينا جمالاً جديداً يتسق فيه العقل الأنثوي بالإرادة الأنثوية تماماً كما يتناسق الفكر الذكوري والعقل الذكوري...)

(وعلينا أن نكون على وعي دائم بأن تحرّر المرأة المتمثل بممارستها لحقوقها الطبيعية والإنسانية لا يفارق تحرّر الرجل المتمثل بقدرته على ممارسة حقه الطبيعي على المستويات والأصعدة كافة. وعلينا أن نكون على ذكر دائم بأن هذا التحرر الإنساني مرتهن بسياق تحرر اجتماعي وفكري عام في مرحلة تاريخية محددة، وذلك حين تكون حركة المجتمع صاعدة باتجاه التقدم. في هذه الحركة تنفتح كل عناصر الوجود الاجتماعي بهواء الحرية النقي، وتمتلئ كلتا الرئتين ـ المرأة والرجل ـ بمناخ الحرية المُشبَع بقيم الحق والعدل...)

لكن هذا الفهم الموضوعي لا يمكن أن يتم فعلاً من دون تحقيق تراكم معرفي كفيل بإنضاج وعي متبصر بطبيعة ما يعوق مسيرة المرأة سواء منه الموروث أو المُملى، وهذا التراكم يراه السيد الجعفري شرطاً أولياً ليس لضمان سلامة المشروع التغييري وشرعيته فحسب، بل لتحديد أولوياته ومجالات تحقيقه من خلال إظهار الرؤية النقدية للواقع المجتمعي القائم بوصفه محصلة العادات والتقاليد والتجارب المكتسبة عبر التاريخ...

وفيه حدد السيد الجعفري :

(عزاؤنا أن ما تعانيه المرأة في بلداننا ليس ثقافة، وإنما هو ركام من العادات والتقاليد)

وقد قال السيد الجعفري مبيناً محددات المسألة:

(إن التقاليد لا تكتسب أية صفة أو قداسة دينية تبرر التمسك بها، وتكرَس التعامل اليومي تجاه المرأة... وأضاف: أن علينا أن نبرز قيمة الرؤية التجديدية المنضبطة القادرة على مراجعة الواقع القائم على ضوء التحولات الاجتماعية والمتطلبات العصرية، وضرورة ملاحظة سلسلة التجارب الإيجابية والمكتسبات المجتمعية التي حققتها المرأة المندمجة في عمق المشروع التغييري حتى يتم التعامل معها كقوة مجتمعية حاضرة بكثافة... وحدد أيضاً: ضرورة تجنب خطيئة الاستنساخ والتنميط من جهة والتزود بالمفاهيم الضرورية لتطوير الأنموذج النسوي ليستجيب للمنظومة الثقافية التي يزخر بها التراث العربي والإسلامي الإنساني).

فعلى مستوى الخطاب الديني تُعَدُ النصوص هي الأساس في قضايا المرأة، والخطاب يشير كله إلى المساواة في أمر الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: **((ومَن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً))**

وقوله تعالى: **((مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون))**

وكذا قوله تعالى: **((فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)).**

نشوء الحياة الاجتماعية

من القضايا الأساسية التي لابدّ من دراستها، وبحثها، وتحليلها تحليلاً علميّاً، هي مسألة نشوء المجتمع والحياة الاجتماعية بما فيها من تعقيدات وتركيب وعلاقات، ومعرفة دوافعها وأسبابها.

وللإسلام نظرته ونظريته في نشوء المجتمع وتكوّن الحياة الاجتماعية، وورد القرآن الكريم مجموعة من الآيات تحدّثت عن مسألة الاجتماع، ودعت إلى بناء المجتمع

الإنساني وصياغة حياة الفرد ضمن التشكيل الاجتماعي العام على أسس ومبادئ راسخة وثابتة، منها:

قوله تعالى: **((يا أيُّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم))**

وقوله: **((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون))**

وقوله سبحانه: **(أ هم يقسمون رحمة ربِّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سُخريّاً ورحمة ربّك خير ممّا يجمعون))**

إنّ دراسة وتحليل هذه الآيات تشخِّص لنا دوافع وأسباب نشوء المجتمع، وتلك الأسباب هي:

1 - العنصر الأساس في البناء الاجتماعي هو قانون الزوجيّة الطبيعي العام المتمثل في التركيب الفطري للمرأة والرجل، فهما عنصرا البناء الاجتماعي وأساس البنية الحيوية من الناحيتين العضويّة والنفسيّة. وهذه العلاقة تدفع بهما غائيّاً لحفظ النوع، وتدفع باتجاه السعادة بوجهيها النفسي والإنساني على أساس الودّ والرحمة وتوفير الطمأنينة.

فالإسلام يعتبر المرأة قاعدة للسكن، والاستقرار النفسي والاجتماعي للرجل والحياة الاجتماعية بأسرها؛ لتحقيق مبدأ الاتزان لدى الجنسين القائم على أساس التكامل من خلال قانون الزوجيّة الكوني العام.

من هنا تتحدّد المسؤوليّة الكبرى للمرأة في بناء المجتمع السويّ السليم نفسيّاً واجتماعيّاً ووظيفيّاً; لأنها مصدر السكن والودّ والحنان والرحمة في الحياة الاجتماعية.

2 - التعارف: أمّا الدافع الثاني الذي دفع الإنسان لتكوين الحياة الاجتماعية، فهو عنصر التعارف بين أبناء النوع البشري القائم على أساس غريزة حب الاجتماع التي عبّر عنها الفلاسفة بقولهم: (الإنسان مدنيّ بالطبع).

فقد أثبتت التجارب النفسية والاجتماعية أنّ الإنسان لا يشعر بالاستقرار والراحة، ولا تكتمل انسانيّته إلاّ بالاجتماع، وبالعيش مع الآخرين، فهو يشعر بحاجة نفسيّة

ماسّة وعميقة إلى الآخرين؛ لذلك قال الله تعالى: ((لتعارفوا))، فعبارة التعارف تعبِّر عن الدافع الإنساني الكامن وراء الاجتماع، وتكوين المجتمع البشري.

3 - تبادل المنافع: فقد شاء الله سبحانه أن يتكامل الأفراد بقابليّاتهم وطاقاتهم الفكرية والجسدية والنفسية، ويتحقق هذا التكامل عن طريق تبادل المنافع بين الأفراد.

فللفرد حاجات ومتطلبات متعدِّدة ليس بوسعه أن يوفرها جميعها لنفسه؛ لذا فهو يحتاج الآخرين ويحتاجونه، وهذا الاختلاف في القابليّات الذي ينتج عنه الاختلاف في نوع الإنتاج والخدمات التي يستطيع أن يوفرها الفرد للآخرين، وتبادل تلك المنتجات والمنافع والخدمات لإشباع الحاجات هو الذي عبّر عنه القرآن بقوله: **((ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريّاً))**

وعلى هذا الأساس نشأت الوظيفة الاجتماعية، وفسّر مبدأ النشوء الوظيفي في المجتمع لتتكامل الحياة كما تتكامل أجهزة البدن في أداء وظائفها.

وهكذا يوضِّح القرآن دوافع نشوء المجتمع، الإنسانية والمادية، وفي كلّ هذه العناصر يبرز دور المرأة واضحاً وأساسياً، سواء في جانبه المادي أو النفسي أو الوظيفي في الحياة الاجتماعية؛ فهي الجزء الأكبر من المجتمع، فإنّ الإحصائية السكانية تفيد أنّ عدد الإناث في المجتمع البشري عادة يزيد على عدد الذكور.

وانطلاقاً من نظرية التكامل الوظيفي التي وضّحها القرآن في المجتمع، يُدرَس دور المرأة في بناء المجتمع كما يُدرس دور الرّجل على حدٍّ سواء ضمن أطر الأهداف والقيم الإسلامية، وليست المرأة عنصراً ثانويّاً ولا وجوداً إضافيّاً على الرغم من أن التجربة البشرية التي أثبتت أنّ تفوّق كثير المرأة في تكوين القاعدة النفسية لبناء الأسرة أكبر من دور الرّجل الذي عبّر عنه القرآن بقوله: **((وخلق منها زوجها ليسكن إليها))**، فالزوج هو الذي يسكن إلى الزوجة، ويستقر بالعيش معها، فهي مركز الاستقطاب وإطار الاستقرار والودّ والمحبة.

ويتحدّث القرآن عن (السكن) في مواضع عديدة، ومن خلاله نفهم ما توفره الزوجة لزوجها، فقد قال الله تعالى :

((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة))، وقوله:

((وجعل منها زوجها ليسكن إليها))

ونفهم قيمة (السكن) في الاجتماع عندما نعرف أنّ القرآن وصف العلاقة بين الزّوج والزّوجة بأنّها علاقة (سكن وودّ ورحمة).

وهذه الكلمة (سكن) لها دلالتها الاجتماعية والأسريّة، فقد قال اللغويون: إن معناها: (... وسكن الريح: هدأت. وسكن النفس بعد الاضطراب: هدأت. وسكن النفس إليه: استأنس به، واستراح إليه... والسكن: المسكن، وكل ما سكنت إليه، واستأنست به، والزوجة والرحمة والبركة والقوت).

فمعنى (السكن) الذي توفره الزّوجة لزوجها وأسرتها، هو: الراحة والاستقرار والاستئناس والرّحمة والبركة والوقار.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أثر الوضع النفسي والعصبي للإنسان على مجمل نشاطه في الحياة، فمن الثابت علميّاً أنّ المسؤولية الاجتماعية، مسؤولية العمل والإنتاج المادي: الزراعي والصناعي، والعمل السياسي والاجتماعي والوظيفي والخدمي في المجتمع: كالإدارة والأعمال الهندسية والتعليم والطبّ والتجارة والفن ... وغيرها، التي يقوم بها كل من الرجل أو المرأة تتأثر بشكل مباشر بأوضاعهم النفسية، فالرّجل الذي يعيش في وسط المشاكل العائلية والتوتر النفسي والعصبي ينخفض إنتاجه المادي، كما يتأثر إقباله على العمل والإبداع في أعماله الخدمية أيضاً، وتزداد مشاكله في علاقاته، وبذا تسهم المرأة بدور مؤثر في مستوى عملية الإنتاج والتنمية صعوداً بانعكاس آثارها النفسية والعصبية على طاقة الرجل ونشاطه اليومي وعلاقته بالإنتاج والعاملين معه.

وليس هذا فحسب، بل تسهم الأم في تطوير المجتمع وبنائه فكرياً ومادياً وأخلاقيّاً من خلال تربية الأبناء وتوجيههم، فالطفل الذي ينشأ بعيداً عن القلق والتوتر والمشاكل العائلية ينشأ سويّ الشخصية إيجابيّاً في علاقاته وتعامله مع الآخرين وعطائه الاجتماعي.

وفي ذلك الصدد أكد الدكتور الجعفري:

(إن المرأة العراقية اليوم تقدم أنموذجاً للعالم بأنها أهل لأن يُحتذى بها فقد وفقت بين الداخل المنزلي والخارج المنزلي، ووفقت بين الحياة الخاصة والحياة العامة، ووفقت في اعتلاء منبر الفكر والشعر والفن وكل المجالات الحياتية)

المرأة والحضارة المادية

إنّ دراسة تاريخ الشعوب والمجتمعات على امتداد عصورها تكشف عن معاناة المرأة واستغلالها واضطهادها، ولم يكن هناك من نظام، أو عقيدة رفعت عن المرأة كابوس الظلم والاضطهاد والمعاناة غير المبادئ الإلهيّة التي تجسّدت بأرقى صورها في الرسالة الإسلامية الخالدة.

ومن خلال الأرقام والإحصاءات المهولة يتأكد أنّ الإنسان المضطهد في هذه الحضارة، والذي تحوّل إلى رقّ وأداة للاستمتاع هو المرأة، ومن خلالها نتعرف على جانب من محنة المرأة ومعاناتها في الحضارة الغربية الحديثة التي ترفع شعار حقوق المرأة.

وقد وصف السيد الجعفري هذا الحال قائلاً:

(إن العالم كله يعيش حالة من المآسي أطبقت على واقع المرأة من جراء الكثير من الخرافات والتي استبدلت بثقافات عادت بانعكاسات سيئة وسلبية على المرأة منذ فجر التاريخ وحتى يوم البشرية هذا)

فكان أن طغى السلوك الذكوري على سلوكيات كثير من النساء إلى الحد الذي تتصدع فيه الأنوثة الرقيقة، وتتحول إلى سمات ذكورية واضحة على شخصية الفتاة أياً كان شكلها...

هذه الحالة فرضت نفسها حتى صارت ظاهرة فعاشت المرأة نفسها في تذمر من الأنوثة التي خلِقت بها، بحيث أصبحت ترى أن الأنوثة ما هي إلا استمرار لتضعيف المرأة وتحقيرها وظلمها كي يبقى الرجل في تسلطه واستبداده... هذه الرؤية لم تأتِ عفوياً ويعلّل السيد الجعفري تلك الظاهرة بأنها واحدة من الانعكاسات الاجتماعية لما يجري ويدور حول الإنسان؛ فكان من نتيجة الموروث الاجتماعي الذي ينظر إلى الفتاة برؤية متدنية، ويركّز على حالة التمييز بين الذكر والأنثى على الحساب الجنسي بالشكل الذي يعطي للذكر الحرية المطلقة والتقدير الكامل أمام غبن كامل للمرأة؛ الأمر الذي ينعكس أحياناً على رؤيتها لذاتها وتركيز شعورها بالحقارة والنقص طلباً للثأر لذاتها وتسعى للتعويض عن الحالة بالميل إلى السلوك الذكوري سواء في الكلمة التي لها وزن ذكوري أو في الحركات أو في الملابس...

فعزا السيد الجعفري ما مرت به إلى جملة من الأسباب منها الاجتماعية على وجه الخصوص، مشيراً:

(واجهت المرأة في الغرب لأجيال طويلة، وبقيت ترزح تحت تأثير ثقافات ومعرفيات منحرفة أقلها البطرياركية أو عقدة الذكورة التي اكتسحت المجتمعات الغربية، وأقصتها من المؤسسات، وحرّمت عليها العمل، وقد ذكر والحديث للسيد الجعفري: ويل ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) وهو في القرن الثامن عشر أن المرأة كانت تضطر إلى أن تخفي أنوثتها، وتحلق شعرها، وتغير ملابسها، وتهجر منطقتها، وتعتاد على الألفاظ القاسية؛ لتوحي للآخرين أنها ذكر لأجل أن تعمل، وفي القرن الثامن عشر نفسه لم تكن المرأة في أميركا بأحسن حال إلى أن جاء دستور عام 1919 في زمن نلسون حتى منح المرأة حق التصويت لأول مرة في تاريخ المرأة).

المرأة في الخطاب الإسلامي

لم يكن من الدين الإسلامي أن يتوجه بخطاب خاص بالرجال وحدهم وخطاب آخر يخص النساء وحدهن، ولم يظهر هذا النوع من الخطاب في تراثه المعرفي أبداً، فقد امتاز خطابه في غالبيته بالعمومية لا خصوصية فيه لجنس دون آخر، لكنه دائماً يوجه في أغلب الأحيان خطاباته لأتباعه يدعوهم للتقيد بالإسلام وتعاليمه وأنظمته وقيمه الروحية والعقائدية والأخلاقية والاجتماعية.

لقد كان للمرأة دور بارز وخطير في مسيرة الدعوة الإلهية وحركة الأنبياء والمرسلين (ع)، فقد أسهمت المرأة في الكفاح الفكري والسياسي، وتحمّلت التعذيب والقتل والهجرة وصنوف المعاناة كلّها والإرهاب الفكري والسياسي والجبروت، وأعلنت رأيها بحريّة، وانضمّت الى الدعوة الإلهية على الرغم مما أصابها من خسائر، ولحوق المطاردة والقتل والتشريد والإرهاب بها، فها هي مريم أم المسيح التي عظّمها القرآن كما عظّمها نبيّ الإسلام محمّد (ص)، فقد أثنى القرآن في آيات عديدة على هذه المرأة الأنموذج وهو يقدِّمها مثلاً أعلى للرجال، كما يقدّمها مثلاً أعلى للنّساء ليُقتدى بسلوكها واستقامة فكرها وشخصيّتها .

ومن يدرس تأريخ المرأة في الدعوة الإلهية، يجدها جهة للخطاب كما هو الرّجل من غير أن يفرّق الخطاب الإلهي بينهما بسبب الذكورة والأُنوثة.

وبدراسة عيّنات تأريخية من حياة النساء في مسار الدعوة الالهية، نستطيع أن نفهم الموقع الرائد والفعّال الذي شغلته المرأة في حياة الأنبياء ودعواتهم، فتتجلّى قيمة المرأة في المجتمع الإسلامي، ومشاركتها الفكرية والسياسية، وحقوقها الإنسانية والقانونية، نقرأ هذه المشاركة المتقدِّمة والواسعة عندما نقرأ قصّة كفاح أبي الأنبياء

إبـراهيم (ع) ضـدّ قومـه فـي بابـل، فـي أرض العـراق، ومـصارعته النمـرود، ذلـك الصراع الذي انتهى بنجاة ابراهيم (ع) من النار بمعجزة إلهية تفوق تصوّرات العقل المادي، ما دعاه الى الهجرة الى بـلاد الشام، فكانـت سـارة زوجتـه والمؤمنـة بدعوتـه رفيقة جهاده، وصاحبته في هجرته الى الشام، ثمّ الى مصر، ليعودا مرّة أخرى الـى الشام فيستقرا هنـاك؛ وليبدأ فصل من أعظم فصول تـاريخ الإنسان علـى يد النبـيّ ابراهيم (ع) تسانده زوجه سارة، وتقف الى جنبه في جهاده ومعاناته وهجرته.

ويتحدّث القرآن عن قصّة الهجرة والحياة الأسرية هذه، كمـا يتحـدّث عن دور هـاجر الزوجـة الثانيـة لإبـراهيم (ع) ومـشاركتها فـي كتابـة الفـصل المـضيء مـن تـاريخ الإنسان في أرض الحجاز، في مكّة المكرّمة، حيث جاء بها من مصر.

لقد كانـت قصّة هذه المرأة من أشـهر قصص التـاريخ، وأكثرهـا غرابـة، وأعظمهـا كفاحاً وصبراً، فتألّقت في سماء التأريخ من خلال احتضان ابنها النبيّ اسماعيل، فـي وادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرّم، ليكون أباً لأعظم نبـيّ فـي تـأريخ البشرية، ألا وهو محمّد (ص)، ويسجِّل القرآن تلك الحوادث بقوله:

((ربِّ إنِّي أسكنتُ مِن ذريّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم))

ويتحـدّث القرآن عن أم موسـى (ع) وتلقّيهـا للتلقين والتوجيـه الإلهـي الـذي ألقـي فـي نفسها؛ لـتحفظ موسـى (ع) مـن ظلـم فرعـون، وتكريمهـا العظـيم بإعادتـه (ع) إليهـا؛ لتكون أم النبيّ المنقذ، الذي حطّم أعظم طاغوت في تأريخ البشرية. يعرضها القرآن محوراً أساسياً في صنع هذه الحوادث، ثمّ يتحدّث عن زوجـة فرعون (آسيا)، وعن مريم أم المسيح عيسى (ع) ويعرضهما أنموذجاً ومثلاً أعلى لأجيال البشرية، بقوله:

((وضربَ اللهُ مثلاً للّذينَ آمنوا امرأةَ فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لِي عندكَ بيتاً في الجنّةِ ونجِّني من فرعونَ وعمله ونجِّني من القوم الظالمين * ومريم ابنـة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربِّها وكتبـه وكانـت من القانتين))

والمتأمل فـي هـاتين الآيتين، ومحتواهمـا الفكـري الرائـع الـذي تحـدّث عن شخـصية المـرأة بـإجلال واحتـرام، لـيس بوسـع أيّ حـضارة ماديّـة أن تمنحهمـا لهـا. فقد قـدّم القرآن المرأة الصالحة مثلاً عمليّاً للرجال والنساء، وطـالبهم بالاقتداء بهـا. جـاء ذلـك في قوله:

((وضرب الله مثلاً للّذين آمنوا))

انّ عبارتي **(ضرب الله مثلاً) و(للّذين آمنوا)** كما هي واضحة، تبرزان لنا مفهوماً حضارياً فريداً في عالم الفكر والحضارة الخاص بالمرأة الصالحة؛ فقد جعلها مثلاً أعلى، وقدوة للرجال، كما هي قدوة النساء في العقيدة والموقف الاجتماعي والسياسي، فعرض أنموذجين لسموّ شخصية المرأة المؤمنة ومكانتها في الفكر الإسلامي. عرض امرأة فرعون، ملكة مصر، وسيِّدة التاج والبلاط والسلطة والسياسة والدولة الكبرى في ذلك العالم، التي تحدّت السلطة، ومريم ابنة عمران التي تحدّت كبرياء بني اسرائيل وتآمرهم، وحربهم الدعائية ضدها.

وكما كان للمرأة دورها في حياة ابراهيم وموسى وعيسى، نجد دورها واضحاً وعظيماً في حياة النبي محمد (ص) ودعوته؛ فلقد جسّدت هذا الدور الفريد خديجة بنت خويلد القرشية (رض) التي كانت سيدة مجتمع مرموقة في مكة المكرمة، وثرية صاحبة مال وثروة وتجارة ورأي، لقد كانت أول من حدّثها النبي (ص) ـ بعد علي (ع) ـ بدعوته، فآمنت به وصدّقته، وبذلت أموالها الطائلة لنصرة دعوته، ولاقت معه صنوف الأذى والاضطهاد على امتداد عشر سنوات من حياتها المقدّسة، ودخلت معه الشِعب، وتحمّلت معاناة الحصار الذي دام ثلاث سنوات، فكانت من أعظم الشخصيات في تاريخ الإسلام؛ لذا سمّى رسول الله (ص) العام الذي توفِّيت فيه عام الحزن.

وكما تحدّث عن موقعها في حركة دعوته، ومسار رسالته، تحدّث عن ابنته فاطمة الزهراء (ع)، فقال: فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها.

وسُئل مرة: يا رسول الله أيّ أهلك أحبّ إليك؟ قال: فاطمة بنت محمد....

من هذه النصوص نفهم مقام المرأة وشخصيّتها في حياة النبي (ص) ودعوته، والموقف النبوي هذا يمثّل في المفهوم الإسلامي أرقى تقييم لمكانة المرأة الإنسانية، واحترام شخصيتها.

ولعلنا نكتشف من خلال البيان القرآني والتاريخي الموجز هذا أنّ المرأة في مفهوم القرآن والرسالة الإلهية هي حاضنة عظماء الأنبياء (ع)، والمكلّفة بحفظهم، والعناية بهم، والوقوف إلى جانبهم، تجسّد ذلك جليّاً في حياة ابراهيم وموسى واسماعيل وعيسى ومحمد (ص)، أعاظم الأنبياء والمرسلين (ع)، وقادة الفكر والإصلاح والحضارة الإلهية على هذه الأرض.

ولقد سجّل القرآن دور المرأة في حياة النبي (ص) ودعوته ومشاركتها له في الهجرة والجهاد مقروناً بدور الرجل عند حديثه عن الهجرة والبيعة والدعوة

والـولاء، واسـتحقاق الأجـر والمقـام الكـريم وعلاقـة الرجـل بـالمرأة... وغيرهـا مـن مئات الآيات من بيانه وحديثه في هذه الموضوعات، مثل قوله تعالى:

((المؤمنـون والمؤمنـات بعضهم أوليـاء بعض يـأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكر))

((ربِّ اغفر لـي ولوالديّ ولمـن دخـل بيتـي مؤمنـاً وللمـؤمنين والمؤمنـات ولا تُزِد الظّالمين إلاّ تبارا))

((يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم))

في هذه الآيات يرفع القرآن المرأة الى أكرم مقام يمكن أن يحتله انسان في الدنيا والآخرة، وهو يتعامل معها كما يتعامل مع صنوها الرجل على حد سواء، فهي والرجل في مفهوم الرسالة الإسلامية (أولياء) يوالي بعضهم بعضاً، ولاء عقائدياً، يقومون بإصلاح المجتمع، ومحاربة الفساد والجريمة والانحطاط، ويحملون رسالة الخير والسلام والإعمار في الأرض.

ويتألّق مقام المرأة مضيئاً، ويشرق مقدّساً على صفحات القرآن من خلال تصويره الرائع، وهكذا فقد منح المرأة الصالحة الحبّ والولاء، ودعا لها بالمغفرة والعفو والرحمة، وأحاطها بهالة من نور، وهي المرأة التي مثالها آسية زوجة فرعون، ومريم أم المسيح، وخديجة زوجة الرسول محمد (ص) وفاطمة بنت محمد (ص).

وندرك عظمة المرأة في الرسالة الإسلامية وفي حياة النبي (ص) بالشكل الذي يتسامى بشخصيّتها، ويمجّدها باحترام وتقدير حين نعرف أنّ أوّل من استشهد في الإسلام هو (سميّة) أم الصحابيّ الجليل عمّار بن ياسر، قتلها أبو جهل أحد قادة الشرك والرجعيّة. فقد دفعت حياتها ثمناً لمبادئها حين بدأت المواجهة بين الإرهاب والطاغوت.

وللسيد الجعفري كان هذا الرأي واصفاً:

(الكثير من السيدات في التاريخ كنّ يمارسن دور البناء الاجتماعي والانطلاقة الى المجتمع من دون أن يخرجن من القيم والاخلاق والمروءة الاجتماعية وتجد نفسها عندما تعرف الحقيقة تصدح بها ولا تتردد أبداً حتى إذا كان أبوها نبياً... وأضاف متسائلاً: أ لم تكن ابنة شعيب تقول لأبيها النبي: يا أبتي استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، وهو قد أخذ بكلامها...).

ويضيف:

(كما برّز القرآن الكريم أنموذجاً للمرأة السياسية في مجال الحكم وتناولها من زوايا عدة، تلك هي ملكة سبأ (بلقيس) في الآيات الشريفة:

((قالت يا ايها الملأ اني القي الي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين قالت يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد والامر إليك فانظري ماذا تأمرين قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون واني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون)). النحل 29 -35

تجسد هذه اللوحة القرآنية مجموعة مفاهيم، مفهوم الامانة بالنقل، ومفهوم الاستشارة وعدم التفرد بالقرار، ومفهوم التأني وعدم التسرع على الرغم من توافر الامكانات التي عكسها عليها قومها، ومفهوم الحكمة لتلافي الاخطار المحتملة، وتحاشي استخدام القوة في غير محلها، واختيار الافضل لمعرفة الحقيقة).

وفي الوقت الحاضر الذي لم يكن منقطعاً عن التاريخ كان له هذا القول:

(الكثير من السيدات شغلن مواقع وزارية ومواقع في البرلمان ومجالس المحافظات، وخضن في مختلف الاختصاصات... ففي البرلمان دخلت المرأة بما لا يقل عن 30%...)

تنــوع أدوار

وهناك مساحة أخرى من مساحات البناء الاجتماعي تسهم فيها الأم كما يسهم الأب، هي مساحة التربية الإيجابية، فالطفل الذي يُنشأ على حبّ العمل، والحفاظ على الوقت، ويوجّه توجيهاً مدرسيّاً سليماً من خلال العائلة، فيواصل تحصيله الدراسيّ وينمي مؤهّلاته الخلاّقة، يكون عنصراً منتجاً من خلال ما يحصل عليه من خبرات واختصاص علمي وعملي. فيتوافر المجتمع على أعداد هائلة من عناصر التقدم الإنتاجي وتستريح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من حالة الركود.

وهكذا تترابط حلقات البناء بين التربية والتنمية والإنتاج والأخلاق واستقرار المجتمع، ويبرز دور المرأة في البناء الاجتماعي في هذه المجالات كلها.

فتلك المنظومة بمفاهيمها هي صيغة إنسانية تجعل من المرأة إنساناً ذا وجود وكياناً له هُويته ومشخصاته ومرتبطاً بروابط عقدية تصبح فيه المرأة كياناً واحداً موحداً لا يمكن الانتقاص منه وتجزئته وفق الرغبات والغرائز الحيوانية كما الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى؛ فتمتد آثارها وانعكاساتها النفسية والعاطفية والسلوكية العملية في العلاقات الإنسانية جميعها، تمتد آثارها من البناء إلى الإصلاح والحفاظ على البُنية الاجتماعية؛ لذا نجد القرآن الكريم يوضِّح هذه الرابطة بقوله:

((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر))

فتلك الآية المباركة تثبت مبدأ الولاء بين المؤمنين والمؤمنات بالله سبحانه ورسالته، وتثبت قاعدة فكرية ونفسية من أقوى قواعد البناء الاجتماعي، وفي هذه الرابطة تدخل المرأة عنصراً أساساً مشخّصاً في نصّ الآية الكريمة.. تدخل في دائرة الولاء، وتتحمّل مسؤولية البناء والتغيير والإصلاح الاجتماعي، كما يتحمّل الرّجل بشكل متعادل.

وبذا تحتل المرأة الموقع ذاته في هيكلية البنية الاجتماعية وتحمّل المسؤولية.

واقعية الدور الحضاري

وقد وقف السيد الجعفري في هذه المحطة، وأولاها اهتماماً كبيراً بأن المرأة أحد العناصر التي يجب أن يكون لها استحقاقها في حركة المجتمع، ويأتي هذا الاهتمام انطلاقاً من شمولية المنظومة الفكرية التي يتبناها السيد الجعفري التي تقول بضرورة تنمية المجتمع من دون التفرقة بين الرجل والمرأة، وهي المجالات التي كانت تعاني أشد المعاناة من جراء سيادة الفكر التقليدي في المجتمع، فكان الفرد مسخراً لصالحِ الطبقات العليا في المجتمع، كما كانت المرأة خارج دائرة الاهتمام، وتـُعامَل على أنها جزء مكمّل للمجتمع من أجل راحة الرجل من دون أي التفاتٍ لمطالب المرأة، فغابت عن الفكر الاجتماعي، وبدت كأنها شيء غير موجود إلا بصورتين الأولى وهي اعتبارها مصدراً للدخل عن طريق العمل في أي مجال، والثانية هي أن تكون مصدراً لاستهلاك موارد.

(أنا لا أعتقد أن هناك فرقاً بين الذكر والأنثى عندما يفكران؛ لذلك نسف القرآن كل النظريات التي حاولت أن توحي بأن المرأة مخلوق ثان.. قال الله تعالى **((ومن آياته**

أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة))، أي ليس من نفس أخرى، وقال تعالى:

((يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم)).

إن معنى ذلك، ان الانسان اي انسان كان ذكراً ام انثى مخلوق من انسانين من ذكر وانثى، باستثناء نبي الله عيسى (ع) من انثى فقط بمعجزة، فانسان الذكر وانسان الانثى هما اساس الشعوب والقبائل، فلا توجد نفس ذكورية من حيث المنشأ ونفس أنثوية تتميز الأولى عن الثانية؛ لذلك نظّر المنظّرون وعلى سبيل المثال (الماركسيون) عندما فسّروا الأسرة بأنها ظاهرة برجوازية لا مبرر لها؛ لأن العامل المحرك للتاريخ كما جاء في النظرية الماركسية... هو قوة الإنتاج؛ ولأن المرأة أضعف من حيث البدن من الرجل فهي تحاول أن تعالج خللها وضعفها البدني فتنضوي تحت لواء الرجل، وما دامت اليوم القوة في العقل فلا معنى لأن تبقى المرأة ترضخ تحت سيطرة الرجل...).

جدلية التأثير والتأثر

هناك علاقة جدلية تربط بين المرأة ومجتمعها تأثراً وتأثيراً، فتُعَد معرفة آليات التغير والتغيير في المجتمع، ودور المرأة في هذه العملية، شرطاً أولياً للوصول إلى ما تهدف إليه من تطوير للمرأة والمجتمع وتحريرهما.

فالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية وهي مجموعة من المعتقدات تتسم بقدر من الاستمرار النسبي، وتمثل موجّهات للأشخاص نحو غايات أو وسائل لتحقيقها أو أنماط سلوكية يختارها ويفضلها هؤلاء الأشخاص بديلاً لغيرها. وتنشأ هذه الموجّهات عن تفاعل بين الشخصية والواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

إن المشكلات التي تواجه المرأة في مجتمعنا ليست نتيجة لثقافة جاءت بها نظريات المنظّرين وأفكارهم، وإنما نتيجة للعادات والتقاليد الاجتماعية، ولو قرأنا التاريخ من موقع الانفتاح على حقائق المنظومة المفاهيمية الإسلامية لوجدنا أن هناك تأسيساً لواقع نسوي يعطي المرأة الدور الذي تستحقه في المجتمع. وفي هذا المعادلة دخل الدكتور الجعفري محاولاً فضّ حالة الاشتباك، وتحليل المشكلات التي تتعرض لها المرأة، والعوائق التي تعترض طريقها نحو البناء والتنمية، وأشار إلى أن أية

مشكلات تواجه المرأة ليست إلا عادات وتقاليد تراكمت نتيجة حالة الجهل والتخلف الاجتماعي.

(أمامنا تقاليد وعادات، ونؤكد أنه لا يوجد في تراثنا فكر أو تنظير يجعل المرأة دون الرجل، وإنما عادات وتقاليد فقط، أما في دول العالم الأخرى فهناك ثقافات وتنظيرات تفلسف: أن المرأة دون الرجل...

(نحن لا نعاني من عُقدة فكر، وإنما نعاني من عقدة تقاليد، والتقاليد تُهزَم أمام الفكر؛ فهي لا تقاوم الفكر، ونستطيع أن نهزم كل العادات والتقاليد).

وعلينا أن نكون على ذكر دائم بأن هذا التحرر الإنساني مرتهن بسياق تحرر اجتماعي، وذلك حين تكون حركة المجتمع حركة صاعدة في اتجاه التقدم، في هذه الحركة تنفتح كل عناصر الوجود الاجتماعي بهواء الحرية النقي، وتمتلئ كلتا الرئتين ـ المرأة والرجل ـ بمناخ الحرية المشبع بقيم الحق والعدل، ومعنى ذلك أن التحرر حالة اجتماعية عامة مرتهنة بتحقيق شروط لا تتحقق إلا بكل أشكال النضال، التي يُعَد النضال الثقافي الفكري بُعداً من أبعادها، لكنه يظل بُعداً واحداً لا يؤتي ثماره إلا بالتوافق المتزامن مع الأبعاد الأخرى.

فيما التصور الإسلامي للمجتمع هو المجتمع الذي تُبنى فيه الروابط والعلاقات وتنظّم فيه المصالح على أساس العدل وتكافؤ الفرص، ومن ثم يمكن إقامة علاقات ونظام حياة وفق وضع مستقر، فالمجتمع الذي تسوده أفكار وقيم وأخلاق وقوانين ونظم حياتية وسلوكية مؤنسنة بعيدة عن الهمجية وباتجاه فطرته وخصائصه الإنسانية التي فطره الله عليها سيصبح مجتمعاً يعيش أعلى حالات السعادة والراحة النفسية وقد لخّص القرآن الكريم ذلك بقوله:

((صِبغَةَ اللهِ ومَن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون))...

الصورة القاتمة للمرأة

من المؤسف أن بعض الباحثين ركّز على رؤية الجانب السلبي من حياة النسوة العربيات والمسلمات وتناولوا بالنقد الوضع الاجتماعي الفاسد لحياة الناس وهذا حق، لكنه ليس سوى جزء من صورة النساء الذي يُفترَض أن يرسم صورة متكاملة عن فعل المرأة في حركة التاريخ أسوة بالرجال.. فهذه الرؤية غير المتوازنة في

التعرف على سلوك المرأة وتشخيص دوافعه وفهم بواعثه قد صنعت شيئاً من التشاؤم.

يقول أحد هؤلاء الباحثين :

(ألا إنه حين توضع النساء على بساط البحث في موضوعنا هذا، تُقرَأ فاتحة الخلاص على المجتمع من أربعة أركانه، فأين هي المرأة التي تهتم بأكثر من البحث عن عابد لجمالها، أو متسكع أمام جسدها أو طامع بالعبث بمفاتنها، فتأنس إذا أطرى حسنها، وتنتشي إذا راودها عن كرامتها، وتنهار أمام معسول كلامه).

ويبدو أنَّ خطاب بعض الباحثين المعاصرين متشائم - في ظاهره - من المرأة حاضرها ومستقبلها على حد سواء، فلم يروا في حياتها الواسعة القائمة سوى صورتها العارية المنحرفة التي تثير فتنة الجنس وشهوة الرجال، ولم ينظروا في تاريخها وحياتها المعاصرة إلا لعيوبها الأخلاقية.

ويمكن لهؤلاء الباحثين أن يكونوا منصفين لو وضعوا صورة النساء كاملة في خطابهم، وبيّنوا بأقلامهم أنماط السلوك السوي وغير السوي التي تصدر عن المرأة سواء في ماضي المرأة أو في حاضرها، وأنْ يستعينوا بمواقف رائعة رصعتها تبشر بأدوار إنسانية فاعلة تؤديها المرأة في الحياة العامة للمجتمع الإنساني .

إنَّ عالم المرأة أوسع من واقع الانحراف، فثمَّة جوانب مضيئة تأخذ مساحة كبيرة في حياتها، كما أنَّ انحراف المرأة ليس حتمية تاريخية لا تقبل التغيير، فتاريخ الإنسان رجلاً أو امرأة لم يخلُ من الانحراف حيناً ومن الاستقامة حيناً آخر .

وقد حدد السيد الجعفري في أحد خطاباته :

(المسألة الأخلاقية هي جوهر إنسانية المرأة، لكن من حقنا مع ذلك أن نكون متفائلين ونحن نشهد بوادر حركة نهضة نسوية تشكل رافداً من روافد الحركة الإصلاحية وما تقوم به من أنشطة تصب في عملية التوطئة التاريخية لمجتمع متحضر، بل نرى أنَّ جهود المرأة تشكل جزءاً من القوى المخلصة الفاعلة في بناء مجتمع الإنسانية...).

وأوضح أن :

(إن التاريخ ميدان للفعل الإنساني المعطاء، وميدان للتغيير الاجتماعي - النفسي، وتعديل الاتجاهات النفسية والعقلية الإنسانية بما يتفق مع سنن الله التي تضبط السلوك الإنساني في أحواله...

(فكما انحرف كثير من النسوة عن الحق والاستقامة وسبّب انحرافهن شؤماً غير سوي في النظرة والتفكير والتوقع، فكذلك يمكن إذا ما غيّرت الأمّـة مـا بنفسها أن تعود النـسوة المنحرفـات إلـى الاسـتقامة والعفـاف، وتثبن إلـى رشـدهن، فيتحـول الشؤم تفاؤلاً...).

المرأة في الحركة الحضـارية

إنَّ المرأة هـي شق الإنسانية ولكنـه مشوّه بسبب تراكمـات تاريخيـة أخذت بالنمطيـة حتى كادت تترسخ وهذا الشق يمكن تفعيل قدراته المعطلة، ويمكن أن يستفاد منه في تجـاوز حالـة المظلوميـة التاريخيـة التـي عانت منهـا أولاً، وتوظيـف كامل إمكانياتهـا وبحد أقصى في معركة التغيير الكبرى الحاسمة التـي تعيشها البشرية فـي حاضـرها ومـستقبلها علـى حـد سـواء ثانيـاً، ولقـد بـدأت المـرأة بتحقيـق نجاحـات تؤكـد فعاليـة قـدراتها الذاتيـة. فـالمرأة كالرجـل تمامـاً تمتلـك طاقـات متألقـة وتعطـّلها حرمـان للمجتمع الذي يعيش أقصى درجات الهدم والبنـاء .. هدم قيم سلبية كانـت سـائدة فـي المجتمعات في زمن ما، وبناء نظام سياسي واجتمـاعي جديد يقوم علـى قيم الإسلام وضـوابطه ومعـاييره وعقائـده وتـشريعاته، وهـذا يحتـاج بـلا شـك إلـى تـآزر القـدرات المشتركة للجنسين وتساندها .

فمـن المـستحيل أنْ ينفـرد الرجـال وحـدهم بهـذه المهمـة التغييريـة خاصـة بعـد نجـاح المرأة في إثبات ذاتها والوصول بقدراتها إلى أقصى مـا يمكـن أنْ تكـون، وبعـد توقـع تحقق نتائج إيجابية متعددة في المستقبل لصـالح المـرأة.

كمـا أن مـسوغات الـدعوة إلـى أي إصـلاحات فـي الأدوار الاجتماعيـة التقدميـة التـي تقـوم بهـا المـرأة حيـث تبـذل المـرأة جهـداً ونـشاطاً إبـداعياً ومنتجـاً ينـال ثقـة الدولـة والمجتمع ويثبت قدرة وفعالية الحركة الحضارية التي يقودها الإسلام، ويبـرز مـدى اسـتعداد المجتمـع لاسـتثمار طاقـات المـرأة وإمكاناتهـا فـي عمليـات الإعـداد والبنـاء وإعـادة الإعمـار، والتنميـة فـي مختلـف جوانبهـا، والمـساهمة الجـادة فـي الـصياغة الجديدة للمجتمع الإنساني العالمي.

وقد أكده الدكتور الجعفري :

(كما أنّ الإمكانيَّات والقدرات المتعددة للمرأة هي بكل تأكيد إحدى مدخلات النهضة الإنسانية الكبرى التي يعيشها العراق الجديد وهي إحدى دعائم أيـة حركـة تغييريـة شاملة سواء في مساهمتها بالإطاحة بأنظمة الظلم الفاسدة بوسـائل سلمية كتربيـة

كوادر، أو رفع الروح المعنوية للمجاهدين، أو دفع الشبهات عن حركته التي يثيرها المستكبرون وأعوانهم من خلال وسائل الإعلام والاتصال، ومشاركتها من جهة أخرى في عمليات البناء والإعمار الجديد للمجتمع الإنساني بعد تحقيق النصر التاريخي...)

إن من الظلم تجاوز الدور الحضاري الفاعل للمرأة، وعدم صياغته في سياق فكري متصل لنؤسس منه ما أمكننا وجهة نظر موحدة قد تكون قابلة للجدل بين مقتنع بجدوى هذه الأدوار وفعاليتها الإيجابية وبين مناهض لها.

وكما أكد الدكتور الجعفري في جملة من أحاديثه عن أدوار المرأة في المجتمع العراقي الجديد وارتباطه بديناميتها، وبما سيقع في المستقبل من وقائع وحوادث، فالمستقبل - بالنسبة لنا ولمن يأتي بعدنا - هو البعد الإنساني النبيل لأي حركة حضارية تقدمية.

(ولا يمكن في ضوء هذه المسلّمة التاريخية التي لا مناص منها عزل مستقبل المرأة عمّا تقوم فيه من أدوار حضارية فاعلة متألقة، ومنطلقة عن هذا البُعد الإنساني النبيل ، لأنَّ فعل المرأة سلبياً كان أو إيجابياً هو في النهاية أحد مظاهر السنَّة التاريخية وتطبيقاتها الصادقة تسهم مع شقائقها الرجال في صنع دورة حضارية جديدة للإنسانية، وتسخر قدراتها لتؤسس من جديد المجتمع الفاضل، وبذلك تضع بصمتها الواضحة في بناء النسيج العام لمجتمعها...)

والحركة الحضارية فيما تعني بمعانيها مجموعة الأفعال المنظمة للنشاط الاجتماعي والمعرفي الصادر عن الإنسان بما فيه عقل المرأة وتفكيرها وحركتها في الحياة، وهي أيضاً سلسلة متتابعة من المواقف والأدوار الفاعلة المستنيرة بهدي العقل الإنساني النقي، والمسترشدة بقيم الدين وأنظمته، والمنسجمة مع المعايير الصحيحة للنظام الاجتماعي العام والتي تؤدي في نهاية الأمر إلى تجاوز حالة الجهل والتخلف الاجتماعي وتعديل في مستوى الحياة الاجتماعية، وإنتاج حالة من الرقي والتقدم في حياة الإنسان، ثمَّ التفتيش عن عناصر وخيوط مشتركة تربط بين هذه الأدوار واستكمال حلقاتها المنتظمة، وصياغتها في نسق معرفي، فتاريخ المرأة - كتاريخ الرجل - هو في حقيقته عملية نمو تدريجي متراكم لأفعالها التاريخية، أو هو سلسلة متتابعة من الأدوار سلبية كانت أو إيجابية .

ويتأكد رأي الدكتور الجعفري على تحويل حالة الحركة المتصاعدة إلى أعلى درجات النمو الإنساني، قائلاً :

(تمتلك المرأة مخزوناً معرفياً وتربوياً، تستطيع به إحداث تغيير جوهري في النظرة السلبية أو الاتجاه المُضاد لدى المجتمع، واستبدالها بأفكار صحيحة لأي اتجاه إيجابي منها من خلال ما وصلت إليه من معرفية وهي في المنطق العلمي نتائج ومعطيات مترتبة عن هذه الحركة تبشر بمستقبل زاهر للمرأة).

ويُوصي الدكتور الجعفري بضرورة الاطلاع على الواقع التاريخي والصفحات المشرقة للمرأة في تغيير المجتمع الإنساني، وتقدير أدوارها الكبيرة، وجعلها قوة للمرأة، وأنموذجاً حسناً مؤثراً على عامة النساء في الاتجاه البنائي والتنموي العام حيث تمثل هذه الأدوار والمواقف نسيج حركتها وفاعليتها الحضارية. كما يوصي والحديث للسيد الجعفري بـ :

(غرس القيمة الإنسانيَّة للمرأة في التكوين النفسي والعقلي للرجال وتنمية اتجاهات موضوعية لديهم لأدوار المرأة ومواقفها المتألقة في نهضة المجتمع...).

المرأة العراقية في فكر السيد الجعفري

للمرأة العراقية - على مر العصور- مكانة متميزة ودور أساسي في بناء المجتمع، وأسهمت يداً بيد مع الرجل في الحفاظ على قيم المجتمع العراقي وتطوير المقومات الأساسية له، وتصدت مع الرجل لجميع الأخطار التي هددت العراق، وحاولت النيل منها.

والمرأة العراقية - الأم والزوجة والأخت والابنة - زميلة العمل وعلى مدرج الجامعة، فلاحة الأرض والصانعة الماهرة.. والطبيبة، والمعلمة، والمحامية، والمهندسة، وأستاذة الجامعة، والمفكرة والأديبة.. لم تتقاعس أو تتراجع أو تتهاون يوماً في أداء دورها نحو أسرتها ومجتمعها ووطنها.. ووقع عليها ما وقع على الرجل من مظالم وانتهاكات، وقدّمت التضحيات ذاتها التي بذلها الرجل.. من أجل الوطن، وتحمّلت - مع ذلك - وقبله - مظالم وانتهاكات خاصة بكونها امرأة، وجاهدت ومعها الأفكار المستنيرة والمفاهيم الصحيحة، والتي كانت دائماً الباب الذي يدخل منه أصحاب دعاوى (قهر المرأة وتخلفها)، وهم أبعد ما يكونون عن سماحة الأديان والفهم الإيجابي لمكانة المرأة ودورها، كما أكدت المناهج والأديان السماوية.

جاهدت المرأة العراقية من أجل الحصول على حقوقها، وتقدمت خطوات وانتكست خطوات، ونالت حقوقاً لم تمارسها، أو بمعنى أدق لم تساعدها الظروف على

ممارستها، ونالت حقوقاً يأتي اليوم مَن يحاول أن يسلبها إياها، وفي كل الأحوال فإن المرأة العراقية لم تتراجع عن أداء دورها في تنمية وتقدم مجتمعها.

وقد أكد السيد الجعفري أن الاهتمام بالمرأة وقضاياها هو اهتمام بكل المجتمع، وأن أي محاولة لعرقلة هذا الاهتمام هي عرقلة لإمكانات وطاقات نصف المجتمع؛ ليعلن انحيازه التام لجميع الحقوق التي تسعى المرأة العراقية لنيلها؛ لأن ذلك ليس في صالح المرأة فقط، وإنما في صالح المجتمع كله رجالاً ونساءً (ماضياً وحاضراً ومستقبلاً)..

(ملأت المرأة العراقية مجالات الحياة بفعالياتها المختلفة، وانطلقت وحملت لواء القضية السياسية في مرحلة المعارضة في مختلف مراحل التاريخ...).

(المراة انطلقت في مجتمعنا في العراق، وأسمعت صوتها إلى العالم كله، بأنها تقف إلى جانب الرجل لبناء المؤسسات في مختلف المجالات، معلمة في المدرسة وممرضة في المستشفى وخياطة في المعمل، ومربية في البيت وفي كل مجال من المجالات... وحين ربض الدكتاتور على صدر العراق الحبيب كانت حصة المرأة وافرة من المطاردة والسجن والتعذيب والقتل والهروب إلى الخارج والاختفاء.... عمّرت المراة من خلال مواقفها الرائعة في كل المؤسسات، وانتقلت العملية السياسية من حيّز المعارضة إلى حيّز الحكم، وأبت المرأة العراقية اليوم إلا أن تأخذ حصتها في الصدارة وتشترك في الحكومة أو في الأقل تشترك في الحكم....)

(حاضر المراة العراقية حاضر حافل ومرصّع بالمواقف المشرفة منذ فترة ما قبل سقوط الطاغوت حيث وقفت المرأة شامخة في مجالات الفكر وفي مجالات الأدب والفن والخدمات العامة والتربية والتعليم والطب والهندسة وكافة مجالات المجتمع، كما وقفت كالطود الشامخ معارضة ومواجهة لأعتى حكومة طاغوتية عرفها تاريخ العراق ودخلت السجن وتلوّت على ظهرها سياط السلطان حتى وصلت إلى درجة أنها نالت شرف الشهادة والبعض منهن قد سُجِنت والبعض الآخر قد طُوردت والبعض الثالث قد هاجر، وهكذا أثبتت المرأة أنها صاحبة مبدأ وأنها تذود وتضحّي من اجل مبادئها ومن أجل وطنها...)

(... إن خطاب المرأة اليوم في العراق خطاب متقدم مزدان بالثقافة وعابق بالجانب العملي.. يشير إلى مواطن الخلل ويستحث الناس من أجل استكمال عملية البناء في كل مجال من المجالات بما فيها حفظ التوازن في المجتمع من خلال مراعاة جنسي المرأة والرجل..... لعبت المراة ولاتزال دوراً كبيراً في الظواهر الاجتماعية

من حولنا فلا يتصورن أحد أن الحكومة مهما قويت تستطيع ان تنوب عن الأم في البيت... وإن الأجهزة الامنية مهما قويت لن تستطيع معالجة ظواهر الإرهاب والطائفية والتخلف والحساسيات المختلفة من دون معونة الأم...)

وتتطلب الحركة الحضارية الفاعلة للمرأة العراقية وعيها وبصيرتها وعزم إرادتها النافذة، ورغبتها في التضحية والخدمة التطوعية، وقدرتها على الصبر والمقاومة وفي بطن صفحات التاريخ صور أضاءت المحجة، وأنارت الدرب، وبشرت بخير قادم، بل إن المجتمع ينتظر بصماتها وهي تشارك الرجال في الإعداد لمجتمع التغيير من خلال أدوارها الحضارية المختلفة في حاضرها ومستقبلها في العراق الجديد.

وبالنسبة للمرأة العراقية وطبقاً لمسح الأحوال المعاشية الذي نظم في عام 2004 من قبل وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي فإنه بعد التحسن الذي طرأ على وضعها في سوق العمل وفي مجال التعليم في سبعينيات القرن الماضي حصلت عدة نكسات خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. فقد أعاق الأسلوب التقليدي في التعامل مع قضايا النوع الاجتماعي مسيرة حقوق المرأة وخلال هذه الفترة تدنى مستوى التعليم وسط النساء.

في إطار تنفيذ مشاريعه الرامية إلى المساهمة في تغيير المجتمع وهو تغيير يرتبط بتغيير العقليات وتغيير التصورات النمطية السائدة عن أدوار الرجل والمرأة، وفي إطار سعيه إلى تكريس توزيع جديد للعمل الاجتماعي والسياسي على أساس القدرة والكفاءة لا على أساس الجنس، وإيماناً منه بضرورة مناهضة قيم اللامساواة الجنسية والتمييز من منظور حقوقي وتنموي وفكري، واعتباراً لما للمشاركة السياسية من أهمية قصوى باعتبارها تكريساً فعلياً للمواطنة ولكل ممارسة ديمقراطية...

وفيه قال الدكتور الجعفري :

(نحن نتطلع إلى مشاركة تقتحم المرأة فيها ذاتياً وتتمتع بقدرة تلقائية على الدخول إلى مضمار السياسة كما هي الحال في مضمار الهندسة والطب والرياضة والفن لانها تقحم على اساس النسبة المفروضة التي لا تعبّر عن فرض قوتها وقدرتها بذاتها إنما إقحام خارج عن ذاتها وارادتها).

واستشرف الدكتور الجعفري المستقبل، موضحاً :

(هذا اليوم أراه قريباً وهو ان يشهد المسرح السياسي العراقي أن المرأة تصنع وتفرض كفاءتها في مضمار السياسة تماماً كما فرضت نفسها في المجالات المجتمعية الأخرى كما أنها لا يشك أحد بأن النصفية بين الذكورية والأنوثة تتجلى في كل مجال من مجالات المجتمع لكننا لم نشهد نصفية عادلة ومُنصِفة في المجالات السياسية والاجتماعية المهمة التي يفترض أن تكون المراة إلى جانب أخيها الرجل تـُثري مسيرة المجتمع وتسهم في بناء العراق كما تـُثري مسيرة الأسرة وتسهم في بناء صرحها...).

(... استشرافي للمستقبل يكشف لي... أن المرأة العراقية ستحتل قمة من بين القمم تماماً كما احتل العراق مكانته في التاريخ، والحضارة، والفكر...).